

و «مولادتينو» أي ، «أمتنا» ، و «أرضنا» ، و «وطننا» ، وظلوا طوال خمس سنوات يشحنونني بأفكار القومية اليهودية والصهيونية دون جدوى حمدا لله ! حمدا لله ! لانني حافظت على نفسي انسانا متحضرا ينتمي الى العالم وليس الى فئة من فئات القومية السياسية .

طوال الفترة التي عشتها في فلسطين ، في القدس في بادئ الامر ، ثم في يافا وتل ابيب كانت جميعها عربية . لقد كان هناك عدد قليل من المستعمرات اليهودية ، وعدد اقل منها من المستعمرات التعاونية التي سأذكر دائما باعجاب خاص ، لانني قضيت اسابيع كثيرة في بعض الكيبوتزات في الجليل خلال ايام دراستي في الجنازيوم . وترد الى خاطري الان ذكرى انني عندما التحقت بالجنازيوم استأجرنا بيتا من عربي يقع على الطريق بين يافا وكثبان الرمال التي انشئت عليها ، فيما بعد ، مدينة تل ابيب . لقد كان هناك القليل من اليهود في تل ابيب لا يتجاوز عددهم بضعة الاف ، قليل من التجار والخطاطين وصانعي الاحذية واليهود المتدينين الذين كانوا يعضون اوقاتهم في الكنيس يصلون ثلاث مرات في اليوم ، ويعيشون من الاعانات والصدقات التي كانوا يطلبونها من التبرعات التي كانت تجمعها من الخارج بعض الجمعيات ومبعوثو هيئات يهود فلسطين ، او الاعانات التي كان الابناء في الخارج يرسلونها لابائهم المسنين الذين رغبوا في قضاء اواخر ايام حياتهم في «الارض المقدسة» كما كانوا يدعونها .

انني احاول جاهدا ، وبأمانة ، ان اتذكر اي عامل او شغل يهودي واحد ، بناء مثلا ، وهو الرجل الذي يصف قطعة طوب فوق اخرى ، ولكن يومئذ لم يكن هناك طوب بل حجارة كانوا يقطعونها من الصخر ثم ينحونها ثم تبني الواحدة فوق الاخرى . لم أقابل أبدا بناء من اليهود في فلسطين ، كما لم اشاهد قط عاملا يهوديا يعمل في كروم العنب التي يملكها عمي او سواه ، كما لم تر عينا يهوديا يفلح الارض - كانوا جميعا من اولئك العرب . فعمي كان يرتدي بذلة ورباط عنق وحذاء جيد التلميع كان يلجمه له احد عماله العرب في الصباح قبل ان يستيقظ من نومه بفترة طويلة . وكان هذا هو طابع الحياة التي كان يعيشها اليهود قبل ان يفد الى فلسطين بن غوريون وصحبه من العمال الفتيان ، وكانوا قليلا العدد نسبيا ،

ومعناها «وطننا» أو مسقط رأسنا أي حيث ولدنا . ولا اظن انه كان من بين طلاب الجنازيوم ، او على اقل تقدير بين زملائي التسعة في الصف وكانوا صبيانا وبنات لطيفين ، لا اذكر ان أيا منهم كان قد ولد في فلسطين العربية . اذ كنا ، جميعنا ، مهاجرين من روسيا ، وقد هاجرنا الى فلسطين اما هربا من المذابح التي تعرض لها اليهود هناك ، أو لتلقي تعاليم الديانة اليهودية او التعليم الصهيوني . وكانوا يرددون على اسماعنا كل يوم ، وكلما وُتت الفرصة ، وحيثما يفلح المدرس في تسريبها «عمينو» ، «ارتسينو» ، «مولادتينو» ، حتى في دروس العلوم كانوا يسربونها ، خلال الدرس ، الى مسامعنا . وكانوا يلقوننا «عمينو» ، «ارتسينو» ، «مولادتينو» في كل حين واي مكان سواه خلال النزاهات او في الصفوف او اثناء لقاءاتنا المدرسية نهار السبت حيث كنا ندعى لناقشة القضايا السياسية . وكانوا يتوخون من هذا الوعظ المتكرر تسميم افكارنا لنتقلب الى يهود توميين . وتذكروا بأن هذا الوعظ والتلقين كان قد بدأ بالنسبة لزملائي في الصف في عام ١٩٠٤ ، وبالنسبة لي ابتداء من العام ١٩٠٨ الى ١٩١٢ حتى اصبح الجنازيوم بؤرة للأفكار القومية السياسية المتطرفة المجنونة . وفي الجنازيوم لم تكن نمارس العبادات والفروض والشعائر الدينية بأية صورة من الصور ، اذ كانوا لا أدرين او ملحدين اذا شئت ان تدعوهم كذلك ، ولم اشاهد في الجنازيوم أي حاخام طوال السنوات الخمس التي قضيتها فيه . ولم نمارس أية حلوات طوال هذه السنوات الخمس . فصباح أيام السبت كنا نذهب الى الجنازيوم اما للاستماع الى محاضرات عن الصهيونية او للفناء ، وبما ان صوتي كان جميلا انضممت الى الجوقة رغم أنني لم أكن أعرف قراءة النوتة الموسيقية .

وقد علمونا في الجنازيوم بأن نكره العرب ، وان نحترقهم وفوق هذا كله ان نطردهم من «مولادتينو» وطننا ومسقط رأسنا ، ومن «ارتسينو» أرضنا وديارنا ، اذ كانت بلادنا لا بلادهم ، وانه كان بوسعنا الاطلاع على التوراة في هذا الصدد . لقد كان في فلسطين العربية في ذلك الوقت ٣٥٠٠٠ يهودي فقط بينما كان هناك حوالي ٦٠٠٠٠٠ من العرب المعانين ، الاسوياء ، العقلاء ، المجدين ، البريين ، القليلي المعرفة ، ومع ذلك ، كانوا يعلموننا في الجنازيوم «عمينو» ، «ارتسينو» ،